

مكتبة مشكاة الإسلامية

زاد المسير في علم التفسير

ابن الجوزي

سورة العنكبوت

فصل في نزولها

روى العوفي عن ابن عباس أنها مكية، وبه قال الحسن وقتادة وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل. وفي رواية عن ابن عباس أنها مدنية. وقال هبة الله ابن سلامة المفسر: نزل من أولها إلى رأس العشر بمكة، وباقيها بالمدينة وقال غيره عكس هذا: نزل العشر بالمدينة وباقيها بمكة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ أَمْ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ *
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ }

قوله تعالى: { أَمْ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا } في سبب نزولها
ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه لما أمر بالهجرة، كتب المسلمون إلى إخوانهم بمكة:
أنه لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا، فخرجوا نحو المدينة
فأدركهم المشركون، فردوهم فأنزل الله عز وجل من أول هذه
السورة عشر آيات، فكتبوا إليهم يخبرونهم بما نزل فيهم، فقالوا
نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون،
فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا، فأنزل الله عز وجل
فيهم { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا } [النحل: 110]
هذا قول الحسن والشعبي.

والثاني: أنها نزلت في عمار بن ياسر، إذ كان يعذب في الله عز
وجل، قاله عبد الله بن عبيد بن عمير.

والثالث: أنها نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب، حين قتل
بدر، فجزع عليه أبواه وامراته، فأنزل الله تعالى في أبويه
وامراته هذه الآية.

قوله تعالى: { أَحْسِبَ النَّاسُ } قال ابن عباس: يريد بالناس الذين
آمنوا بمكة كعياش بن أبي ربيعة وعمار بن ياسر وسلمة بن هشام
وغيرهم.

قال الزجاج: لفظ الآية استخبار، ومعناه معنى التقرير والتوبيخ،
والمعنى: أحسب الناس أن يتركوا بأن يقولوا: آمنا ولأن يقولوا:
آمنا أي: أحسبوا أن يقنع منهم بأن يقولوا: إنا مؤمنون فقط، ولا

يמתحنون بما يبين حقيقة إيمانهم، { وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } أي لا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم من كذبه.

وللمفسرين فيه قولان.
أحدهما: لا يفتنون في أنفسهم بالقتل والتعذيب، قاله مجاهد.
والثاني: لا يبتلون بالأوامر والنواهي.
قوله تعالى: { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } أي: ابتليناهم واختبرناهم { فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ } فيه ثلاثة أقوال.
أحدهما: فليرين الله الذين صدقوا في إيمانهم عند البلاء، إذا صبروا لقضائه، وليرين الكاذبين في إيمانهم إذا شكوا عند البلاء، قاله مقاتل.

والثاني: فليميزن، لأنه قد علم ذلك من قبل، قاله ابو عبيدة.
والثالث: فليظهرن ذلك حتى يوجد معلوما، حكاه الثعلبي.
وقرأ علي بن أبي طالب وجعفر بن محمد: «فليعلمن الله و«لِيُعْلِمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيُعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ» [العنكبوت: 11] بضم الياء وكسر اللام.
قوله تعالى: { أَمْ حَسِبَ } أي: أيجسب { الَّذِينَ يَعْمَلُونَ } السَّيِّئَاتِ { يعني الشرك { أَنْ يَسْبِقُونَا } أي: يفوتونا ويعجزونا { سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } أي: بئس ما حكموا لأنفسهم حين ظنوا ذلك. قال ابن عباس: عنى بهم الوليد بن المغيرة وابا جهل والعاص بن هشام وغيرهم.

{ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *
وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ *
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

قوله تعالى: { مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ } قد شرحناه في آخر الكهف: { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ } يعني: الأجل المضروب للبعث، والمعنى: فليعمل لذلك اليوم { وَهُوَ السَّمِيعُ } لما يقول { الْعَلِيمُ } { بما يعمل { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } أي: إن ثوابه إليه يرجع.

قوله تعالى: { لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ } أي لنبطلنها حتى تصير بمنزلة مالم يعمل، { سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعة ولا نجزيهم بمساوئ أعمالهم.
{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ }
قوله تعالى: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا } وقرأ ابي بن كعب وأبو مجلز وعاصم الجحدري { إِحْسَانًا } بالف. وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء { حَسَنًا } بفتح الحاء والسين. روى أبو عثمان النهدي

عن سعد ابن أبي وقاص قال: في أنزلت هذه الآية، كنت رجلا برا بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أولا أكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلي يا أماه إنني لا أدع ديني هذا لشيء، قال: فمكثت يوما وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت يوما آخر وليلة لا تأكل، فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا، ما تركت ديني هذا لشيء فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت، فأنزلت هذه الآية. وقيل إنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة، وقد جرى له مع أمه نحو هذا، وذكر بعض المفسرين: أن هذه الآية والتي في [لقمان: 15] وفي [الأحقاف: 15] نزلن في قصة سعد. قال الزجاج: من قرأ {حَسَنًا} فمعناه ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن. ومن قرأ {إِحْسَانًا} فمعناه ووصينا الإنسان أن يحسن إلى والديه وكان {حَسَنًا} أعم في البر. {وَإِنْ جَهَدَاكَ} قال أبو عبيدة: مجاز هذا الكلام مجاز المختصر الذي فيه ضمير، والمعنى: وقلنا له وإن جاهدك. قوله تعالى: {لِتُشْرِكَ بِى} معناه لتشرك بي شريكا لا تعلمه لي، وليس لأحد بذلك علم، فلا تطعهما. قوله تعالى: {لَتُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} أي في زمرة الصالحين في الجنة، وقال مقاتل: «في» بمعنى «مع».

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}

قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ} اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها: أنها نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر، فارتدوا، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: نزلت في قوم كانوا يؤمنون بالسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم افتتنوا، قاله مجاهد.

والثالث: نزلت في ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون فإذا أودوا وأصابهم بلاء من المشركين، رجعوا إلى الشرك قاله الضحاك.

والرابع: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة كان أسلم، فخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هاربا إلى المدينة، وذلك قبل قدوم رسول الله ص إلى المدينة، فجزعت أمه فقالت لأخويه: ابي جهل والحارث ابني هشام - وهما أخواه لأمه -: والله لا أوي بيتا ولا أكل طعاما ولا أشرب شرابا، حتى تأتياني به فخرجا

في طلبه، فظفرا به فلم يزالا به حتى تابعهما، وجاءا به إليها فقيدته، وقالت: والله لا أحلك من وثاقتك حتى تكفر بمحمد، ثم أقبلت تجلده بالسياط وتعذبه، حتى كفر بمحمد عليه السلام جزعا من الضرب، فنزلت فيه هذه الآية، ثم هاجر بعد وحسن إسلامه، هذا قول ابن السائب ومقاتل. وفي رواية عن مقاتل أنهما جلداه، في الطريق مائتي جلدة فتبرأ من دين محمد، فنزلت هذه الآية. قوله تعالى: { فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ } أي ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه { جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ } أي: ما يصيبه من عذابهم في الدنيا { كَعَذَابِ اللَّهِ } في الآخرة. وإنما ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله تعالى، لما يرجو من ثوابه { وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ } يعني دولة للمؤمنين { لَيَقُولَنَّ } يعني المنافقين للمؤمنين { إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ } على دينكم. فكذبهم الله عز وجل وقال { أَوَلَيْسَ لِلَّهِ } بأعلم بما في صدور العالَمين { من الإيمان والنفاق. وقد فسرنا الآية التي تلي هذه في أول السورة.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا تُبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }

قوله تعالى: { تُبِعُوا سَبِيلَنَا } يعنون ديننا. قال مجاهد: هذا قول كفار قريش لمن آمن من أهل مكة، قالوا لهم: لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا، فإن كان عليكم شيء فهو علينا. قوله تعالى: { وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ } قال الزجاج: هو امر في تأويل الشرط والجزاء يعني: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. وقال الأخفش: كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. وقرأ الحسن: ولنحمل بكسر اللام. قال ابن قتيبة: الواو زائدة والمعنى لنحمل خطاياكم. قوله تعالى: { إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } أي: فيما ضمنوا من حمل خطاياهم. قوله تعالى: { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ } أي أوزار أنفسهم { وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ } أي: أوزارهم مع أوزارهم، وهي أوزار الذين أضلوههم، وهذا كقوله: { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِمَّنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل: 25] { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا } سؤال توبيخ وتقرير. عما كانوا يفترون من الكذب على الله عز وجل. وقال مقاتل: عن قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله عز وجل.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ }

قوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ } في هذه القصة تسلية للنبي ص حيث أعلم أن الأنبياء قد ابتلوا قبله، وفيها وعيد

شديد لمن أقام على الشرك، فانهم وإن أمهلوا فقد أمهل قوم نوح أكثر ثم أخذوا.

قوله تعالى: { فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا } { اختلفوا في عمر نوح على خمسة أقوال.

أحدها: بعث بعد أربعين سنة، وعاش في قومه ألف سنة إلا

خمسین عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، رواه يوسف بن مهرا ن عن ابن عباس.

والثاني: أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسین عاماً، وعاش بعد ذلك سبعین عاماً، فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين سنة، قاله كعب الأخبار.

والثالث: أنه بعث وهو ابن خمسین وثلاثمائة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسین عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسین وثلاثمائة، قاله عون بن أبي شداد.

والرابع: أنه لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، ودعاهم ثلاثمائة سنة، ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، قاله قتادة. وقال وهب ابن منبه: بعث لخمسین سنة.

والخامس: أن هذه الآية بينت مقدار عمره كله، حكاه الماوردي. فإن قيل: ما فائدة قوله { إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا }؟ فهلا قال تسعمائة وخمسين!

فالجواب: ان المراد به تكثير العدد، وذكر الألف أفخم في اللفظ وأعظم للعدد.

قال الزجاج: تأويل الاستثناء في كلام العرب التوكيد، تقول: جاءني إخوتك إلا زيدا، فتؤكد أن الجماعة جاؤوا وتنقص زيدا، واستثناء نصف الشيء قبيح جدا لا تتكلم به العرب، وإنما تتكلم بالاستثناء كما تتكلم بالنقصان، تقول عندي درهم ينقص قيراطا، فلو قلت ينقص نصفه، كان الأولى ان تقول عندي نصف درهم، ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلا قليلا من كثير.

قوله تعالى: { فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ } فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: الموت، روت عائشة عن رسول الله ص في قوله: { فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ } قال: الموت.

والثاني: المطر قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر وقتادة. قال ابن قتيبة: هو المطر الشديد.

والثالث: الغرق قاله الضحاك.

قال الزجاج: الطوفان من كل شيء ما كان كثيرا مطيفا بالجماعة كلها، فالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة طوفان، وكذلك القتل الذريع والموت الجارف طوفان.

قوله تعالى: { وَهُمْ ظَالِمُونَ } قال ابن عباس: كافرون.

قوله تعالى: { وَجَعَلْنَاهَا } يعني: السفينة قال قتادة: أبقاها الله آية للناس بأعلى الجودي، قال أبو سليمان الدمشقي: وجائز أن يكون اراد الفعلة التي فعلها بهم من الغرق {ءآيَةً} أي: عبرة {لِّلْعَالَمِينَ} بعدهم.

{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ عِبُدُوا اللَّهَ وَنَبِّئُوهُمْ ذِكْرَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَشُكِّرُوا لَهُ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدِ كَذَبَ أُمَّةٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ لِمُبِينٍ }

قوله تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ } قال الزجاج: هو معطوف على نوح والمعنى أرسلنا إبراهيم.

قوله تعالى: { ذَلِكُمْ } يعني: عبادة الله { خَيْرٌ لَّكُمْ } من عبادة الأوثان، { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ما هو خير لكم مما هو شر لكم والمعنى: ولكنكم لا تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثاناً. قال الفراء: إنما في هذا الموضع حرف واحد وليست على معنى الذي. وقوله: { وتخلقون إفكا } مردود على «إنما» كقولك: إنما تفعلون كذا، وإنما تفعلون كذا. وقال مقاتل: الأوثان الأصنام. قال ابن قتيبة: واحدها وثن، وهو ما كان من حجارة أو حص.

قوله تعالى: { وتخلقون إفكا } وقرأ ابن السميغ وأبو المتوكل { وتخلقون } بزيادة تاء ثم فيه قولان.

أحدهما: تخلقون كذبا في زعمكم أنها آلهة.

والثاني: تصنعون الأصنام والمعنى: تعبدون أصناماً، أنتم تصنعونها، ثم بين عجزهم بقوله { اللَّهُ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا } أي: لا يقدر على أن يرزقوكم { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ } أي: فاطلبوا من الله فإنه القادر على ذلك.

قوله تعالى: { وَإِنْ تَكْذَبُوا } هذا تهديد لقريش، { فَقَدِ كَذَبَ أُمَّةٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ } والمعنى: فأهلكوا.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * }
{ وَإِلَيْهِ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ }
{ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

{ أَوَلَمْ يَرَوْا } قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر { يَرَوْا } بالياء. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء. وعني عاصم كالقراءتين. وعني بالكلام كفار مكة { كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ } أي كيف يخلقهم ابتداءً من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى أن يتم

الخلق، ثم يعيده أي ثم هو يعيده في الآخرة عند البعث، وقال أبو عبدة: مجازة: أولم يروا كيف استأنف الله الخلق الأول، ثم يعيده، وفيه لغتان: أبدأ وأعاد، وكان مبدئاً ومعيداً، وبدأ وعاد، وكان بادئاً وعائداً.

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} يعني الخلق الأول والخلق الثاني.

قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا إِلَى الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي فِي الْأَرْضِ، وَابْحَثُوا عَنْهَا، هَلْ تَجِدُونَ لَهَا خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ؟ فَاذْكُرُوا أَنَّهُ لَا خَالِقَ لَهُمْ سِوَاهُ لَزِمْتَهُمُ الْحُجَّةَ فِي الْإِعَادَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ} أي: ثم الله ينشئهم عند البعث نشأة أخرى. وأكثر القراء قرؤوا النشأة بتسكين الشين وترك المد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بالمد.

قوله تعالى: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} فيه قولان.

أحدهما: أنه في الآخرة بعد إنشائهم.

والثاني: أنه في الدنيا. ثم فيه خمسة أقوال، حكاه الماوردي.

أحدها: يعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة.

والثاني: يعذب بسوء الخلق، ويرحم بحسن الخلق.

والثالث: يعذب بمتابعة البدعة، ويرحم بملازمة السنة.

والرابع: يعذب بالانقطاع إلى الدنيا، ويرحم بالإعراض عنها.

والخامس: يعذب من يشاء ببغض الناس له، ويرحم من يشاء بحب الناس له.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُقَلِّبُونَ} أي: تردون {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} فيه قولان، حكاهما الزجاج.

أحدهما: وما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أهل السماء بمعجزين في السماء.

والثاني: وما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا لو كنتم في السماء.

وقال قطرب: هذا كقولك: ما يفوتني فلان لا هاهنا ولا بالبصرة،

أي: ولا بالبصرة لو صار إليها، قال مقاتل: والخطاب لكفار مكة

والمعنى: لا تسبقون الله حتى يجزيكم بأعمالكم السيئة، وما لكم

من دون الله من ولي، أي: قريب ينفعكم ولا نصير يمنعكم من

الله.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ} أي: بالقرآن

والبعث {أُولَئِكَ يَتَّخِذُونَ مِنْ رَحْمَتِي} في الرحمة قولان.

أحدهما: الجنة، قاله مقاتل.

والثاني: العفو والمغفرة، قاله أبو سليمان. قال ابن جرير: وذلك

في الآخرة عند رؤية العذاب.

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا قُتِلُوا أَوْ خَرَّ قَوْمُهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} * وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن

دُونَ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي لِحْيَتِهِ أَلَدُنْيَا ثُمَّ يَوْمَ لِقِيمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ {

ثم عاد الكلام إلى قصة إبراهيم وهو قوله تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ} أي: حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام {إِلَّا أَنْ قَالُوا قُتِلُوا أَوْ حَرِّقُوا} وهذا بيان لسفه أحلامهم، حين قابلوا احتجاجه عليهم بهذا. قوله تعالى: {فَأَنْجَاهُ اللَّهُ} المعنى: فحرقوه فانجاه الله {مِنَ النَّارِ}.

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ} يشير إلى إنجائه إبراهيم. قوله تعالى: {وَقَالَ} يعني إبراهيم {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: {مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} بالرفع والإضافة. قال الزجاج: مودة مرفوعة باضمار هي، كأنه قال: تلك مودة بينكم، أي: ألفتكم واجتماعكم على الأصنام مودة بينكم والمعنى: إنما اتخذتم هذه الأوثان لتوادوا بها في الحياة الدنيا، ويجوز أن تكون ما بمعنى الذي.

وقرأ ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، وابن أبي عبيدة: {مَّوَدَّةٌ} بالرفع {بَيْنِكُمْ} بالنصب.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: {مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} قال أبو علي: المعنى: اتخذتم الأصنام للمودة {وَبَيْنِكُمْ} نصب على الظرف والعامل فيه {لَمَّوَدَّةً}.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: {مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} بنصب مودة مع الإضافة، وهذا على الاتساع في جعل الظرف اسماً لما أضيف إليه.

قال المفسرون: معنى الكلام: إنما اتخذتموها لتتصل المودة بينكم واللقاء والاجتماع عندها، وأنتم تعلمون أنها لا تضر ولا تنفع، {ثُمَّ يَوْمَ لِقِيمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ} أي: يتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن بعضكم بعضاً، يلعن الأتباع القادة لانهم زينوا لهم الكفر.

{ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَكَتَبْنَا لَهُ آيَاتِنَا أَجْرَهُ فِي لَدُنْيَا وَإِنَّهُ فِي آخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَابُونَ لِفَجِيشَةٍ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ عَالَمِينَ * أَتَيْتُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ لِمُنْكَرٍ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّتُمْ لَعَذَابُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ لِمُفْسِدِينَ {

قوله تعالى: { فَنَامَنَ لَهُ لُوطٌ } أي: صدق بإبراهيم { وَقَالَ }
يعني إبراهيم { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي } فيه قولان.
أحدهما: إلى رضى ربي.

والثاني: إلى حيث أمرني ربي، فهاجر من سواد العراق إلى الشام
وهجر قومه المشركين. { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ } بعد إسماعيل
{ وَيَعْقُوبَ } من إسحاق { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ لُطُوفًا وَ لُكْتُبَ }
وذلك أن الله تعالى لم يبعث نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه، { وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } فيه أربعة أقوال.

أحدها: الذكر الحسن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
والثاني: الثناء الحسن والولد الصالح، رواه أبو صالح عن ابن
عباس.

والثالث: العافية والعمل الحسن والثناء، فليست تلقى أحدا من
اهل الملل إلا يتولاه، قاله قتادة.

والرابع: أنه أرى مكانه من الجنة، قاله السدي.

قوله تعالى: { وَإِنَّهُ فِي الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } قد سبق بيانه
[البقرة 130] قال ابن جرير: له هناك جزاء الصالحين غير منقوص
من الآخرة بما أعطي في الدنيا من الأجر. وما بعد هذا قد سبق
بيانه [الأعراف 80] إلى قوله: { وَتَقَطُّعُونَ أَلْسِنًا } وفيه ثلاثة
أقوال.

أحدها: أنهم كانوا يعترضون من مر بهم لعملهم الخبيث، قاله أبو
صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنهم كانوا إذا جلسوا في مجالسهم يرمون ابن السبيل
بالحجارة، فيقطعون سبيل المسافر، قاله مقاتل.

والثالث: أنه قطع النسل للعدول عن النساء إلى الرجال، حكاه
الماوردي.

قوله تعالى: { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ لِمُنْكَرٍ } قال ابن قتيبة: النادي
المجلس، والمنكر يجمع الفواحش من القول والفعل.
وللمفسرين في المراد بهذا المنكر أربعة أقوال.

أحدها: أنهم كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم، فذلك
المنكر، روته أم هانئ بنت أبي طالب عن رسول الله ص. وقال
عكرمة والسدي: كانوا يحذفون كل من مر بهم.

والثاني: لف القميص على اليد، وجر الإزار، وحل الأزرار، والحذف
والرمي بالبندق، ولعب الحمام، والصفير، في خصال آخر رواها
ميمون بن مهران عن ابن عباس.

والثالث: أنه الضراط، رواه عروة عن عائشة، وكذلك فسره
القاسم بن محمد.

والرابع: أنه إتيان الرجال في مجالسهم، قاله مجاهد، وقتادة،
وابن زيد.

وهذه الآية تدل على أنه لا ينبغي للمجتمعين أن يتعاشروا إلا على ما يقرب من الله عز وجل، ولا ينبغي أن يجتمعوا على الهزء واللعب.

قوله تعالى: { رَبِّ أَنْصُرْنِي } أي: بتصديق قولي في العذاب. { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِ بُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا مُرَأْتَهُ كَانَتْ مِنْ لُغَيْبِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مِرْأَتَكَ كَانَتْ مِنْ لُغَيْبِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * } وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {

قوله تعالى: { إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ } يعنون قرية لوط. قوله تعالى: { لَنُنَجِّيَنَّهُ } قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: { لَنُنَجِّيَنَّهُ } و { إِنَّا مُنْجُونَ } بتشديد الحرفين، وخففهما حمزة، والكسائي. وروى أبو بكر عن عاصم: { لَنُنَجِّيَنَّهُ } مشددة، و { إِنَّا مُنْجُونَ } مخففة ساكنة النون. وقد سبق شرح ما أخللنا بذكره [هود 77] إلى قوله: { إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا } وهو الحصب والخسف.

قوله تعالى: { وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا } في المكنى عنها قولان. أحدهما: أنها الفعلة التي فعل بهم، فعلى هذا في الآية ثلاثة أقوال. أحدها: أنها الحجارة التي أدركت أوائل هذه الأمة، قاله قتادة. والثاني: الماء الأسود على وجه الأرض، قاله مجاهد. والثالث: الخبر عما صنع بهم.

والثاني: أنها القرية، فعلى هذا في المراد بالآية ثلاثة أقوال. أحدها: أنها آثار منازلهم الخربة، قاله ابن عباس. والثاني: أن الآية في قريتهم إلى الآن أن أساسها أعلاها وسقوفها أسفلها، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

والثالث: أن المعنى: تركناها آية تقول: إن في السماء آية تريد أنها هي الآية، قاله الفراء.

{ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يٰقَوْمِ عِبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا لِيَوْمَ الْآخِرِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }

قوله تعالى: { وَارْجُوا لِيَوْمَ الْآخِرِ } قال المفسرون: اخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال.

{ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَوَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِ بَيِّنَاتٍ فَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّن أَرْسَلْنَا

عَلَيْهِ خَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {

قوله تعالى: { وَعَاداً وَثَمُودَ } قال الزجاج: المعنى: وأهلكنا عاداً وثموداً، لان قبل هذا فأخذتهم الرجفة.
قوله تعالى: { وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ } أي: ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آية في هلاكهم، { وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ } قال الفراء: أي ذوي بصائر. وقال الزجاج: أتوا ما أتوه وقد تبين لهم أن عاقبتهم عذابهم. وقال غيره: كانوا عند أنفسهم مستبصرين، يظنون أنهم على حق.
قوله تعالى: { وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ } أي: ما كانوا يفوتون الله ان

يفعل بهم ما يريد. قوله تعالى: { فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ } أي: عاقبنا بتكذيبه { فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ خَاصِباً } يعني: قوم لوط { وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ } يعني ثمودا وقوم شعيب، { وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ } يعني قارون وأصحابه { وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا } يعني قوم نوح وفرعون { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ } فيعذبهم على غير ذنب { وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } بالإقامة على المعاصي.

{ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتٌ لَّعَنكَبُوتٍ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }

قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ } يعني: الأصنام، يتخذها المشركون أولياء يرجون نفعها ونصرها، فمثلهم في ضعف احتيالهم { كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا } قال ثعلب: والعنكبوت أنثى، وقد يذكرها بعض العرب قال الشاعر:
على هطالهم منهم بيوت كأن العنكبوت هو ابتناها

قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } أي: هو عالم بما عبدوه من دونه، لا يخفى عليه ذلك، والمعنى: أنه يجازيهم على كفرهم { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ } يعني أمثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار، وقيل: إن تلك بمعنى هذه و { الْعَالِمُونَ } الذين يعقلون عن الله عز وجل.

{ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي نُنزِّلُ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ فِيهَا لَمِّنظَرٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }
{ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } أي: للحق، ولإظهار الحق.

قوله تعالى: { تِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } في المراد بالصلاة قولان.

أحدهما: أنها الصلاة المعروفة، قاله الأكثرون. وروى أنس بن مالك عن رسول الله ص أنه قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزد من الله إلا بعدا».

والثاني: أن المراد بالصلاة القرآن، قاله ابن عمر، ويدل على هذا قوله: { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ } [الاسراء 110] وقد شرحنا معنى الفحشاء والمنكر فيما سبق [البقرة 168] [النحل 90]. وفي معنى هذه الآية للعلماء ثلاثة أقوال.

أحدها: أن الإنسان إذا أدى الصلاة كما ينبغي وتدبر ما يتلو فيها، نهته عن الفحشاء والمنكر هذا مقتضاها وموجبها.

والثاني: أنها تنهاه ما دام فيها.

والثالث: أن المعنى: ينبغي أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر. قوله تعالى: { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } فيه أربعة أقوال.

أحدها: ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، رواه ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد في آخرين.

والثاني: ولذكر الله أفضل من كل شيء سواه، وهذا مذهب أبي الدرداء، وسلمان، وقتادة.

والثالث: ولذكر الله في الصلاة أكبر مما نهاك عنه من الفحشاء والمنكر، قاله عبد الله بن عون.

والرابع: ولذكر الله العبد ما كان في صلاته أكبر من ذكر العبد لله، قاله ابن قتيبة.

{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقَوْلًا ءَامَنًا بِأَلَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

قوله تعالى: { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } في التي هي أحسن ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها لا إله إلا الله، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أنها الكف عنهم، إذا بذلوا الجزية فإن أبوا قوتلوا، قاله مجاهد.

والثالث: أنها القرآن والدعاء إلى الله بالآيات والحجج.

قوله تعالى: { إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } وهم الذين نصبوا الحرب، وأبوا أن يؤدوا الجزية، فجادلوا هؤلاء بالسيف، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وقولوا لمن أدى الجزية منهم، إذا أخبركم بشيء مما في كتبهم { بِأَلَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا } الآية وقد روى أبو هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ص: «لا

تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم». الآية.

فصل

واختلف في نسخ هذه الآية على قولين.

أحدهما: أنها نسخت بقوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله إلى قوله وهم صاغرون} [التوبة 29] قاله قتادة، والكلبي.

والثاني: أنها ثابتة الحكم، وهو مذهب ابن زيد.

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ لِكِتَابٍ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ لِكِتَابٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا لَكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ لَمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ }

قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ } أي: وكما أنزلنا الكتاب عليهم، { وَكَذَلِكَ }

أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ لِكِتَابٍ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ لِكِتَابٍ يُؤْمِنُونَ { يعني مؤمني أهل الكتاب، { وَمِنْ هَؤُلَاءِ } يعني أهل مكة { مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ } وهم الذين أسلموا { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا لَكَافِرُونَ } قال قتادة: إنما يكون الجحد بعد المعرفة، قال مقاتل: وهم اليهود.

قوله تعالى: { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ } قال أبو عبيدة:

مجازه ما كنت تقرأ قبله كتاباً و«من» زائدة، فأما الهاء في قبله

فهي عائدة إلى القرآن والمعنى: ما كنت قارئاً قبل الوحي ولا

كاتباً، وهكذا كانت صفته في التوراة والإنجيل، أنه أمي لا يقرأ ولا

يكتب، وهذا يدل على أن الذي جاء به، من عند الله تعالى.

قوله تعالى: { إِذًا لِأَنَّكَ لَمُبْطِلُونَ } أي: لو كنت قارئاً كاتباً لشك

اليهود فيك، ولقالوا ليست هذه صفته في كتابنا، والمبطلون

الذين يأتون بالباطل، وفيهم ها هنا قولان.

أحدهما: كفار قريش، قاله مجاهد.

والثاني: كفار اليهود، قاله مقاتل.

قوله تعالى: { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ } في المكني عنه قولان.

أحدهما: أنه النبي محمد ص، ثم في معنى الكلام قولان.

أحدهما: أن المعنى: بل وجدان أهل الكتاب في كتبهم أن محمداً

ص لا يكتب ولا يقرأ، وأنه أمي آيات بينات في صدورهم، وهذا

مذهب ابن عباس، والضحاك، وابن جريج.

والثاني: أن المعنى: بل محمد ذو آيات بينات في صدور الذين

أوتوا العلم من أهل الكتاب، لأنهم يجدونه بنعته وصفته، قاله

قتادة.

والثاني: أنه القرآن، والذين أوتوا العلم المؤمنون الذين حملوا

القرآن على عهد رسول الله ص، وحملوه بعده. وإنما أعطي

الحفظ هذه الأمة وكان من قبلهم لا يقرؤون كتابهم إلا نظرا، فاذا
أطبقوه لم يحفظوا ما فيه سوى الأنبياء، وهذا قول الحسن.
وفي المراد بالظالمين هاهنا قولان.
أحدهما: المشركون، قاله ابن عباس.
والثاني: كفار اليهود، قاله مقاتل.

{ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِكْتَابٍ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بِنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِ لَبَطِلٍ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }

قوله تعالى: { وَقَالُوا } يعني كفار مكة { لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ } قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم:
{ آيَاتٍ } على الجمع. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: { آيَةً } على التوحيد. وإنما أرادوا كآيات الأنبياء { قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ } أي: هو القادر على إرسالها وليست بيدي، وزعم بعض علماء التفسير أن قوله { وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } منسوخ بآية السيف.

ثم بين الله عز وجل أن القرآن يكفي من الآيات التي سألوها بقوله: { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِكْتَابٍ } وذكر يحيى بن جعدة: أن ناسا من المسلمين أتوا رسول الله ص بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما يقول اليهود، فلما نظر إليها ألقاها وقال: «كفى بها حماقة قوم أو، ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى قوم غيرهم» فنزلت { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ } إلى آخر الآية.
قوله تعالى: { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ } قال المفسرون: لما كذبوا بالقرآن نزلت: { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بِنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً } يشهد لي أني رسوله، ويشهد عليكم بالتكذيب، وشهادة الله له إثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه { وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِ لَبَطِلٍ } قال ابن عباس: بغير الله وقال مقاتل: بعبادة الشيطان.

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمْ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَعْشَاهُمْ لِعَذَابٍ مِّن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

قوله تعالى: { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } قال مقاتل: نزلت في النضر بن الحارث، حين قال: { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ } [الأنفال: 32].

وفي الأجل المسمى أربعة أقوال.
أحدها: أنه يوم القيامة، قاله سعيد ابن جبیر.

والثاني: أجل الحياة إلى حين الموت وأجل الموت إلى حين البعث،
قاله قتادة.

والثالث: مدة اعمارهم قاله الضحاك.

والرابع: يوم بدر جكاه الثعلبي.

قوله تعالى: {وَلْيَأْتِيَنَّهُمْ} يعني العذاب. وقرأ معاذ القارئ وأبو
نهيك وابن أبي عبله {ولتأتينهم} بالتاء {فَأَخَذْتَهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا
يَسْعُرُونَ} باتيانه.

قوله تعالى: وإن جهنم لمحيطة بالكافرين أي: جامعة لهم.

قوله تعالى: {وَيَقُولُ ذُوقُوا} قرأ ابن كثير بالنون. وقرأ نافع

بالياء. فمن قرأ بالياء أراد الملك الموكل بعذابهم. ومن قرأ

بالنون فلأن ذلك لما كان يأمر الله تعالى جاز ان ينسب إليه ومعنى

{مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي جزاء ما عملتم من الكفر والتكذيب.

{يُعْبَادِي لِدِينٍ ءَامَمًا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ قَائِيًا وَ عِبْدُونَ * كُلُّ

نَفْسٍ ذَائِقَةٌ لِمَوْتٍ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَ لِدِينٍ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَهُمْ مِّنْ لَّحْنَةٍ عُرْقًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * لِدِينٍ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

قوله تعالى: { لَبَطَلٌ وَأَنَّ لِدِينٍ ءَامَنُوا } قرأ ابن كثير ونافع

وعاصم وابن عامر { فِي عِبَادِي } بتحريك الياء. وقرأ أبو عمرو

وحمزة والكسائي باسكانها.

قوله تعالى: { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ } وقرأ ابن عامر وحده { أَرْضِي }

بفتح الياء. وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه خطاب لمن آمن من أهل مكة، قيل لهم: إن أرضي

يعني: المدينة واسعة، فلا تجاوروا الظلمة في أرض مكة. قاله أبو

صالح عن ابن عباس. وكذلك قال مقاتل: نزلت في ضعفاء

مسلمي مكة أي: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فارض

المدينة واسعة.

والثاني: أن المعنى: إذا عمل بالمعاصي في أرض، فاخرجوا منها.

رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال عطاء.

والثالث: إن رزقي لكم واسع، قاله مطرف بن عبد الله.

قوله تعالى: { قَائِيًا وَ عِبْدُونَ } أثبت فيها الياء يعقوب في

الحالين، وحذفها الباقيون. قال الزجاج: أمرهم بالهجرة من

الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله إلى حيث تنهأ لهم العبادة،

ثم خوفهم بالموت، لتهون عليهم الهجرة، فقال: { كُلُّ نَفْسٍ

ذَائِقَةٌ لِمَوْتٍ } المعنى: فلا تقيموا في دار الشرك خوفا من

الموت، ثم إلينا ترجعون بعد الموت، فنجزكم بأعمالكم.

والأكثر قرؤوا: { تُرْجَعُونَ } بالتاء على الخطاب، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء.

قوله تعالى: { لَتُبَوَّئَهُمْ } قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: { لَتُبَوَّئَهُمْ } بالياء، أي: لتنزلهم. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: { لتبوينهم } بالتاء، وهو من ثويت بالمكان إذا أقمت به. قال الزجاج: يقال: ثوى الرجل إذا اقام، وأثويته إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه.

قوله تعالى: { يَتَوَكَّلُونَ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رَزْقَهَا } قال ابن عباس: لما أمرهم رسول الله ص بالخروج إلى المدينة، قالوا: يا رسول الله نخرج إلى المدينة وليس لنا بها عقار ولا مال فمن يؤوبنا ويطعمنا؟ فنزلت هذه الآية. قال ابن قتيبة: ومعنى الآية: كم من دابة لا ترفع شيئاً لغد، قال ابن عيينة: ليس يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة. قال المفسرون: وقوله { اللَّهُ يَرْزُقُهَا } أي: حيثما توجهت { وَإِيَّكُمْ } أي: ويرزقكم إن هاجرتم إلى المدينة { وَهُوَ السَّمِيعُ } لقولكم: لا نجد ما ننفق بالمدينة { لَعَلِمُ } بما في قلوبكم.

{ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفِكُونَ } * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ نَّزْلِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ }

قوله تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ } يعني كفار مكة، وكانوا يقرون بأنه الخالق والرازق، وإنما أمره أن يقول: { لِحَمْدِ اللَّهِ } على إقرارهم لأن ذلك يلزمهم الحجة فيوجب عليهم { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } توحيد الله مع إقرارهم بأنه الخالق والمراد بالأكثر: الجميع.

{ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } * فَإِذَا رَكِبُوا فِي لُفُكٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }

قوله تعالى: { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ } والمعنى: وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي عن قليل، { وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ } يعني: الجنة { لَهِيَ الْحَيَوَانُ } قال أبو عبيدة: اللام في { لَهِيَ } زائدة للتوكيد، والحيوان والحياة واحد، والمعنى: لهي دار الحياة التي لا موت فيها، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياة الدنيا { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } أي: لو علموا لرغبوا عن الفاني في الباقي، ولكنهم لا يعلمون.

قوله تعالى: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي لُفُكٍ } يعني المشركين، { دَعَوْا } اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } أي: افردوه بالدعاء. قال مقاتل: والدين

بمعنى التوحيد، والمعنى: أنهم لا يدعون من يدعونه شريكا له { فَلَمَّا تَجَاهَمُ } أي: خلصهم من أهوال البحر وأفضوا إلى البر { إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } في البر، وهذا إخبار عن عنادهم { لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ } هذه لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد كقوله: { عَمَلُوا مَا شِئْتُمْ } [فصلت 40] والمعنى: ليحجدوا نعمة الله في إنجائه إياهم وليتمتعوا. قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي باسكان اللام على معنى الامر، والمعنى: ليتمتعوا بباقي أعمارهم، { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } عاقبة كفرهم. وقرأ الباقر بكسر اللام في { ليتمتعوا } فجعلوا اللامين بمعنى كي، فتقديره: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا، فيكون معنى الكلام: إذا هم يشركون ليكفروا وليتمتعوا، أي: لا فائدة لهم في الإشراف إلا الكفر والتمتع بما يتمنون به في العاجلة، من غير نصب لهم في الآخرة.

{ أَوْلِمُ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَةٌ لِبَطَلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ بِكَفْرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ قُتِرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَ لِدِينٍ جَهْدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ لِمُحْسِنِينَ }

قوله تعالى: { أَوْلِمُ يَرَوْا } يعني كفار مكة { أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا } يعني مكة وقد شرحنا هذا المعنى في [القصص 57] { وَيُتَخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } أي: أن العرب يسبي بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون { أَفِئَةٌ لِبَطَلٍ } وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: الشرك، قاله قتادة.
والثاني: الأصنام، قاله ابن السائب.
والثالث: الشيطان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: { يُؤْمِنُونَ } وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعاصم الجحدري: { تُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ تَكْفُرُونَ } بالتاء فيهما.
قوله تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ } يعني: مجمداً والإسلام، وقيل: بانعام الله عليهم حين أطعمهم وأمنهم { يَكْفُرُونَ }، { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ قُتِرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا } أي: زعم أن له شريكا، وأنه أمر بالفواحش { أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ } يعني محمداً والقرآن { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } وهذا استفهام بمعنى التقرير كقول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ
{ وَ لِدِينٍ جَهْدُوا فِينَا } أي: قاتلوا أعداءنا لاجلنا { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } أي: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة؛ وقيل: لنزيدنهم هداية { وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ لِمُحْسِنِينَ } بالنصرة والعون. قال ابن عباس: يريد بالمحسنين: الموحدين، وقال غيره: يريد المجاهدين. وقال ابن المبارك: من اعتاصت عليه مسألة، فليسأل أهل الثغور عنها لقوله: { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا }.

